المحاضرة 3

الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم

المحتويات :

1-التبدلات الصوتية.

أ/ العدول الصوتي.

ب/الحذف والذِكر.

2- الظواهر الأسلوبية البلاغية.

أ/ الإيقاع.

ب/ التناسق الصوتي.

ج/ إيحاء الصوت بالمعنى.

د/ التكرار.

إن البحث في الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، هو بحث في السمات الفارقة والخصائص المائزة لهذا النص عن غيره، من حيث تشكيله الصوتي وبناؤه الإيقاعي والموسيقي.

إن تعدد مظاهر الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، من أصوات وكلمات وتراكيب ، وتداخل أشكالها وتكامل بعضها مع بعض، وانصهار معانيها، يجعلها عصية على التصنيف، متأبية على الحصر والتحديد، كما يجعل الخروج بنظام محدد أو وضع ضوابط معينة ترسم معالم نظرية صوتية خاصة بالإعجاز الصوتي أمرا عسيرا، ومن ثم جاءت جهود الدارسين مقتصرة على التحليل الذوقي، والاجتهادات الجزئية، والوصف الحسي؛ وكلهم يدرك في قرارة نفسه أن حقيقة الإعجاز الصوتي، سر من أسرار الكتاب المكين الذي لا تنتهي عجائبه ولا تنفذ غرائبه[1].

من أهم دلائل الإعجاز الصوتي ما يلي :

أولا : كون النظم الصوتي جزءا لا يتجزأ، وعنصرا فاعلا في النظم القرآني الكلي، يؤثر فيه ويتأثر به.

ثانيا : الأثر النفسي لأصوات القرآن الكريم وإيقاعاته في المتلقي.

ثالثا : استمرار البلاغة الصوتية العالية، والانسجام والتناسب والتلاؤم في لغة القرآن الكريم كلها، من فاتحته إلى خاتمته.

تتجلى مظاهر الإعجاز الصوتي لكتاب الله في كل مكوناته الصوتية، ويمكن تقسيمها إلى صنفين كبيرين :يرتبط الصنف الأول بالمستوى الصوتي المقطعي، ويتعلق الصنف الثاني بالمستوى الأسلوبي البلاغي.

يعتمد التعبير القرآني على الطاقة الإيحائية للأصوات بقصد انفتاح دلالاته ومعانيه على فضاءات وآفاق رحبة، وقد رصد البحث بعض الآليات الإجرائية التي يوظفها النص القرآني لهذا الغرض، على رأسها الإبدال والعدول الصوتيين، والمراوحة بين الإدغام وفك الإدغام حسب مقتضى الحال، بالإضافة إلى استثمار الدلالة الإيحائية للتراكمات الصوتية، والخصائص الصوتية للصوامت والصوائت. كما تعد الحروف المقطعة في فواتح السور، من خواص القرآن الكريم، وتتميز من الناحية الصوتية باللذة في السمع، والسلاسة والخفة والسهولة والعذوبة لم تجئ اعتباطا ولم ترد جزافا، بل هي منتقاة بدقة، لتكو ن سرا من أسرار البلاغة، ودليلا من دلائل الإعجاز في كتاب الله.[2]

1-التبدلات الصوتية.

إن التبدلات الصوتية التي تطرأ على الأصوات في الخطاب القرآني يشملها مصطلح "العدول" ؛ الذي حظي عن باهتمام كبيرٍ جدا لدى البلاغيين والنقاد ويكاد إجماعهم ينعقد على محوريته في العمل الإبداعي مطلقا. وفي تراثنا العربي نجد إشارات ولمحات لمفهوم العدول مع اختلاف المصطلح، وعدم دراسته وتحليل مكوناته، فقد أجمع علماء العربية قديما على أن أسلوب القرآن العظيم خارج عن المألوف من كلام البشر، وهذا يبين تنبه العرب إلى هذه الظاهرة الأسلوبية بمفهوم مغاير، إذ أجازوا للشاعر ما لم يجيزوه للناثر من عدول عن أصل اللغة، وظهر أكثر وضوحا في العصر الإسلامي لوقوعه في لغة القرآن الكريم، فتناوله علماء النحو والفقه والأصول بتسميات مختلفة منها :العدول والانزياح والانحراف والخرق والخروج عن سنن اللغة والمجاز والالتفات.

و قد ترجم "عبد السلام"المسدي" المصطلح الغربي" ECART" بـ"الانزياح" أو "التجاوز" الذي يعني الخروج عن الأصل ، ثم قال مستدركا يمكن أن نحيي له لفظة عربية هي العدول ؛ و من ثّم كان استعمال المصطلح العربي" العدول بعدّه أقوى المصطلحات القديمة تعبيرا عن مفهوم الانزياح. [3] لأن « الفاعل في" انزاح "هو النص نفسه أما في" عدلَ "فإنَّه المتكّلم أي أن الفاعل في مصطلح" العدول "هو المتكلم لا النَّص فيكون الأبلَغ والأدقَّ لتضمنه دلالة القصدية».[4]

أ/ العدول الصوتي.

العدول الصوتي هو الخروج والميل عن قواعد اللّغة المثالية، والمثالية تكون في الصوت المفرد، وفي الصيغ الصرفية، وفي تركيب الجمل. والعدول لا يتجاوز ما ورد في القراءات السبع أو العشر، أما القراءة الشاذة فتصلح للاستشهاد ولا تصلح للعبادة.

لقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الألفاظ الخارجة عن القياس اللّغوي، حيث يتمكّن الخبير باللّغة من اكتشافها أثناء سماعها أو قراءتها، لأنها تجذبه لغرابتها أو خروجها عن أصل الوضع، لاتخاذها صورة مخالفة لبنيتها المألوفة، ويمكن تصنيف أنواع العدول الصوتي إلى ما يأتي:[5]

1- العدول الصوتي بتغيير الحركة.

إنّ العدول في القرآن فيه سر من أسرار العربية، ولاسيما إذا قُصد به تحقيق غاية جمالية أو دلالية، وذلك ما يتضح من خلال قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾، [الفتح:10] حيث يقول

"ابن زنجلة" :«إنّ حفصا قرأها: (بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ) بضم الهاء على أصل حركتها، وقرأ باقي القراء (عَلَيْه) بكسر الهاء لمجاورتها الياء»، ولقد شاع عن العرب أنّ حركة ضمير الغائب إذا سُبقت بياء أو بكسرة فإنها تكسر.

2- العدول الصوتي بالإبدال.

ورد العدول الصوتي بواسطة الإبدال في القرآن الكريم في عدة مواضع، نذكر منها ما ورد في سورة الغاشية، يقول الله تعالى: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية:22]، فلفظة (مصيطر) مادتها الأصلية (س، ط، ر) حدث فيها العدول الصوتي من خلال إبدال السين بالصاد...لأن السيطرة دليل على القوة والتجبر، وردت بالصاد المفخمة المناسبة للموقف بدلا من السين المهموسة التي تتلاءم في أغلب الأحيان مع الرقة والليونة.

3-العدول الصوتي بالإدغام وفكه.

كما هو معلوم فإن غرض الإدغام هو طلب التخفيف ، لأنه يثقل على المتكلم تكرير الحرف بعد النطق به، ومن المفسرين من يرى أن مسألة فك الإدغام الواردة في القرآن الكريم من باب نزول القرآن بلغة غير الحجازيين ، إذ إن الإدغام هو لغة قريش ، و فك الإدغام جاء على لغة تميم، [6] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: 217]، و قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: 54]، بفك الإدغام في الأولى (يرتدد) بالإدغام في الأخرى (يرتّد).

ربط" فاضل السامرائي" دلالتي " الإدغام و فك الإدغام " بالسياق والمقام للآيتين ، معضداً ذلك بالقرائن اللفظية ،ومستنداً إلى حقيقة علمية أقرها علماء اللغة بأن فك التضعيف ثقيل على اللسان؛ فالردة في الآية الأولى جاءت بعد الفتنة والقتال، فجاء باللفظ الثقيل للموقف الثقيل ، ثم إن لفظ " يرتدد "يوحي بلفظ الهزيمة والنكوص والرجوع إلى الوراء لأن فك الإدغام معناه الرجوع إلى المخرج بعد انتقاله عنه كما قرره علماء اللغة فهو أشبه شيء بالتراجع في الحرب ، والمرتدد عن دينه بسبب الحرب والفتنة

منهزم ناكص إلى الوراء ، فناسب بين اللفظ والمقام. في حين أن الموقف في الآية الثانية (المائدة 54) ليس كذلك ، فهو في موقف العافية والاختيار ، فجاء باللفظ الخفيف.[7]

4- العدول الصوتي بالإمالة

مثال ذلك الإمالة في كلمة (مجراها) في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [هود: 41] ، حيث عُدت هذه اللفظة الوحيدة في السياق القرآني كله في "قراءة حفص" التي تتسم بهذه السمة الصوتية (الإمالة)، حيث جاءت الإمالة لتعبر عن حركة السفينة التي ستكون سهلة يسيرة، بلا مشقة ولا معاناة.[8]

ب/ الحذف والذّكر.

من روائع البيان القرآني المعجز أنه يحذف حرفا من بعض ألفاظه في موضع، ويذكره في موضع آخر، يكون حذفُه لحكمة تتفق مع السياق، وذكرُه في الموضع الآخر لحكمة مقصودة تتفق مع السياق أيضا، فالسياق حكَم في الحذف وفي الذكر.[9]

وقد يحذف القرآن حرفا من الفعل ليدل على أن الحدث الذي يدل عليه الفعل أقلّ، بينما يُذكر الحرف في الفعل نفسه في موضع آخر ليدل على أن الحدث أكثر، أو أن زمنه أطول، ويمكن أن نمثل للحذف والذكر بما جاء في قصة موسى والخضر عليهما السلام؛ فقال الخضر لموسى :﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾ [الكهف: 78] قبل أن يؤول الأفعال الثلاثة التي قام بها و عدّها هذا الأخير أفعالا غريبة (خرقُ السفينة، قتل الغلام، بناء الجدار)، ولّما أول الخضر لموسى أفعاله قال له:﴿ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴾ [الكهف: 82]. لقد أثبتت التاء في فعل (تستطيع) في الآية الأولى، وحذفت من الفعل نفسه في الآية الثانية؛ إن إثباتها في المرة الأولى يتناسب مع السياق، لأن موسى عليه السلام شاهد ثلاثة أفعال مثيرة للخضر عليه السلام، وقد وقع في حيرة وهو يحاول تفسيرَها، وقد راعى السياق القرآني المعجز "الثقل النفسي" الذي يعيشه موسى، فأثبت التاء في فعل (تستطيع) ، فبذلك تناسب الثقل النفسي مع الثقل البنائي في حروف الفعل المكون من خمسة أحرف. وحذفت التاء من الفعل في المرة الثانية (تسطع) تناسبا مع مشاعر موسى عليه السلام إذْ زال همه وثقله.

2- الظواهر الأسلوبية البلاغية.

أ/ الإيقاع.

من دوافع الاهتمام بإيقاعية القرآن الكريم خروج هذه الإيقاعية عن منظومة أشعار العرب و ما ألِفوه فيها؛ حيث وجدوا أنفسهم أمام ظاهرة متمثلة في في « اتساق القرآن وئتلاف حركاته وسكناته، ومَدّاته، وغُناته، واتصالاته، وسكتاته، ذلك ما يسترعي الأسماع و يستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم أو منثور » .[10]

في تمثيله لإيقاع أصوات القرآن الكريم يقول "محمد محمد داود" : « فلنستمع إلى مطلع سورة العاديات وهي تُتلى علينا؛ فما من شك أن أول ما يطرق آذاننا هو تلك الحركات والطرقات المتواليات، كما تفعل الخيول حال ركضها، فلا ريب أن الألفاظ تفعل فينا ماهو أجمل وأجلّ من السحر بمنتهياتها المتماثلة ».[11]

ب/ التناسق الصوتي.

يقصد به النغم الصوتي الذي يلفت الانتباه وتستريح له الأذن إلى حد يأخذ بالنفس... وإذا ما حاولنا الكشف عن الظاهرة بتتبع أصوات الحروف والحركات التي تُكّون الفواصل بهذا التناسق الصوتي المبدع، فإننا نلاحظ التالي:[12]

- كثرة الحركات وبخاصة الطويلة (حروف المد: الألف، الواو، الياء) بما لها من نغمات منتظمة تسيطر على لحن الكلام.
- كثرة ورود الصوامت المتوسطة (النون، الميم، الراء، الواو، الياء)، وهي قريبة من الناحية الفيزيائية إلى طبيعة الحركات، التي تسهم في خاصية التنغيم الشجي بشكل واضح.
- يُدعّم هذا ظواهر صوتية خاصة بالقرآن كالمد والغنة.

وكل هذه العناصر الصوتية لا تكون بهذا التناسب الفريد في غير القرآن من فنون الشعر والنثر.

ج/ إيحاء الصوت بالمعنى.

يقصد بإيحاء الصوت بالمعنى أن يوحي جَرْس أصوات الكلمة بمعناها الذي رُصد لها في المعجم؛ إننا نتخيل –بل نكاد نرى– المشهد المعبَّر عنه إذا لامست أسماعَنا كلماته « فحين يريد القرآن أن ينقل للناس صورة النار –على جهة التخويف والإنذار– وهي مهتاجة مغتاظة غاضبة، يختار

الحروف الهادية إلى هذه المعاني التي تُصوّر بجرْسها هذا العنف، وذلك الغضب، فالصورة الصوتية للحرف تُشكل المادة الأولى للقيم اللفظية، فمثلا هذه (الظاء والشين) في (شُواظ) في قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: 35] . و (الشين والهاء) في (شهيقا) من قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴾ [الملك: 6-7] ».[13]

إن الإيحاء الصوتي في القرآن ينهض به الصوت اللغوي وحده، مفردا كان أو مركبا، فيصور المعنى –الذي في السياق–بدقة، بحيث لا يسدُّ آخرُ مسدَّه.[14]

د/ التكرار.

يشكل التكرار الصوتي في القرآن العظيم ظاهرة فنية بارزة ملفتة للسمع والفكر؛ لأنها تخاطب الآذان والأذهان، وتسترعي الأسماع والطباع، وتخلق إيقاعا مترنما، ونغما موسيقيا ،فيقبل السامع وقد انشرحت نفسه وتفتحت، وتهيأت للتفاعل الإيجابي مع مضامين الخطاب ودلالاته.

من أمثلة التكرار التي ذكرها "عبد الحميد هنداوي" في كتابه " الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم" : تكرار الواو والسين في كلمة (توسوس) ، (يوسوس) في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: 16] و: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: 5]؛ نلمح في هذين المثالين أن الفعل (وسوس) يتركب من تكرار المقطع (وس)، و التكرار الصوتي لهذا المقطع يحاكي عملية الوسوسة بما تشتمل عليه من إلحاح و إغراء بالشيء يقتضي تكرار الإيعاز بالشيء مرة بعد مرة.[15] والأمر نفسه يقال عن كلمة (كُبكِبوا) في الآية 94 من سورة الشعراء.

[1] ينظر: عبد العزيز أيت بها، الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المملكة المغربية، 2014.

[2] ينظر: المرجع نفسه، الفصل الأول.

[3] ينظر: صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1992 ص 63 ،

[4] عبد الناصر مشري، دلالات العدول الصرفي في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه غير منشورة، في اللغة العربية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، السنة الجامعية: 2013-2014، ص 23.

[5] محمد الصغير ميسة، جماليات الإيقاع الصوتي في القرآن الكريم، مذكرة ماجستير غير منشورة، تخصص علوم اللسان العربي،جامعة بسكرة، 2012، ص 98-102 بتصرف.

[6] م.م.باسم كريم مجيد، الدلالة الصوتية في القرآن الكريم عند الدكتور فاضل السامرائي، مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار، العراق، العدد 2، المجلد 5، جوان 2015، ص 110.

[7] المرجع نفسه، ص 111.

[8] ينظر: عبد الحميد هنداوي، الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، الدار الثقافية، القاهرة، مصر، 2004، ص88.

[9] صلاح عبد الفتاح الخالدي، إعجاز القرآن البياني و دلائل مصدره الرباني، ص 242.

[10] ينظر: محمد محمد داود، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، دار جياد، المملكة العربية السعودية، ط1، 2011، ص 54.

[11] المرجع نفسه، ص 54-55.

[12] المرجع نفسه، ص 66.

[13] محمد محمد داود، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ص 73-74.

[14] المرجع نفسه، ص 82

[15] عبد الحميد هنداوي، الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، ص 106.